

الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية

Ibn elkym Eljouzia's didactical thought

الدكتورة حفيفة بن محمد. كلية العلوم الإسلامية-جامعة الجزائر 1-

h.benmohamed@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ القبول: 2022/12/28

تاريخ الاستلام: 2022/6/7

ملخص: لقد كان ولا يزال البحث في الحقل التربوي وما يتّصل به من مناهج ومبادئ وأسس محل اهتمام وبحث خبراء التربية وعلماء النفس والاجتماع العرب والغرب المعاصرين على السواء، غير أنّ جهود هؤلاء جميعًا تبقى بعيدة نوعًا ما عن الاستفادة من كلّ ما توصّل إليه علماؤنا الأوائل في هذا المجال، وهي بأمر الحاجة إلى نفّس الخبر عنها وإخراجها على أكمل حلّة ليستفيد منها الباحثون المعاصرون ويطبّقونها في الميدان، ومن علماء وخبراء المسلمين الذين كان لهم باعٌ كبيرٌ في مجال التربية قديمًا ابن قيم الجوزية، الذي انفرد بكثيرٍ من الأفكار التربوية النيرة والقيمة التي من شأنها أن تضيف لبنة جديدةً إلى الحقل التربوي عمومًا، وهذا ما سنحاول استخراجها من كتبه ووضعها بين أيدي الباحثين التربويين ليستفيدوا منه في مقارباتهم التربوية.

الكلمات المفتاحية: 1- التربية. 2- الفكر التربوي. 3- مبادئ وأسس التربية. 4- مقومات التربية في الإسلام.

Abstract

Both arab and occidental specialists from many different fields such as didactics, sociology and psychology give a lot of importance to this instructive profession in term of methods basics and principles related to this sensitive arena. Besides these considerable efforts they can not equal the working did by there preceding ones since specialists do not benefit too much from their considerable achievements. Hence, the former works on didactics achieved by the former specialists must be taken into consideration because they are the badrock of any contemporary research in this field. For instance, among the muslim scholars who gave a lot of to this profession, IbnElkym Eljouzia who established many principles and thoughts which might enrich the field of didactics in genral. Thus, this piece of writing tries to expose some of his illuminating thoughts and Adidas.

المؤلف المرسل: حفيفة بن محمد، h.benmohamed@univ-alger.dz

1-مقدمة:

يعتقد كثير من المشتغلين والفاعلين العرب في الحقل التربوي عموماً أنّ النظريات والاتجاهات التربوية الغربية المعاصرة لا مناص منها في مجال التربية اليوم، ولهذا نجدهم متأثرين متأثراً شديداً بتلك النظريات والاتجاهات التي أنستهم أو بالأحرى أغمضت أعينهم عن تراثنا العربي والإسلامي العريق وجهود علمائنا القدامى في هذا المجال، والذين كانت لهم أفكار تأثّر بها علماء الغرب وبنوا عليها كثيراً من المفاهيم والأساليب والنظريات التربوية، ولعلّ من أشهر هؤلاء العلماء العرب والمسلمين الذين تأثّر بهم علماء الغرب (وكان لهم الأثر البالغ في الفكر التربوي الغربي عموماً) ابن قيم الجوزية الذي سبقته أفكاره عصره، وهي إلى يومنا يُهتدى بها في الحقل التربوي والعلمي، ولا تزال بحاجة إلى التحليل والتعمّق في فهمها وتطبيقها في الواقع، لِمَا امتاز به من دقّة نظر، وبصيرة وعمق في الطرح، وخبرة في فهم النفس البشرية وكيفية الغوص في أغوارها، وذلك ما جعل منهج التأثير التربوي عنده مثمراً وهادفاً، وهذا ما بعث فينا روح الفضول وشوق فهم أفكاره التربوية النفسية النفيسة، وطريقته في تأصيل التحصيل التربوي، ولست أبالغ إذا قلت أنّه كان منظراً تربوياً نفسياً، وخبيراً حاذقاً، وعالمًا مسلمًا فذاً في مجال التربية في عصره وما بعده-إلى يومنا هذا-

2-الإشكالية:

ما خصوصيات الفكر التربوي عند ابن قيم الجوزية؟ وماهي مرتكزات ابن قيم في التربية؟ وماهي الأسس الفكرية التي بنى عليها منهجه التربوي؟ وما هي مبادئه ومقوماته وأساليبه في التربية؟ وهل أثّرت البيئة الاجتماعية في فكره التربوي؟ ماهي الآثار التربوية لابن قيم الجوزية في مجال التربية عموماً؟

3-سيرة مقتضبة عن ابن قيم الجوزية:

هو شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، الفقيه، الحنبلي، الأصولي، المجتهد، المفسّر، المحدث، المتكلّم، النحوي، ولد سنة 691هـ-1292م بدمشق وتوفي يوم الخميس 751هـ-1350م، بعد أن بلغ ستين سنة (عمر رضا كحالة، 1414هـ-1993م، ص164)، أمّا الجوزية فهي نسبة إلى المدرسة الجوزية

بوسط مدينة دمشق التي كان والده قيّمًا عليها، ضمن أسوار القلعة بجوار المسجد الأموي العتيق، وقد أنشأ هذه المدرسة محي الدين ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص38).

له مؤلفات كثيرة منها: التفسير القيم، مدارك السالكين في شرح منازل السائرين، الداء والدواء، الفوائد، تحفة المودود بأحكام المولود، الروح والنفس وغيرها.

من تلاميذه: ابنه برهان الدين إبراهيم، وابنه شرف الدين، وجمال الدين عبد الله، الحافظ ابن رجب الحنبلي، والحافظ ابن كثير، والإمام الذهبي، ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي اللغوي الشهير صاحب معجم تاج العروس من جواهر القاموس.

4- البيئة الاجتماعية والثقافية لعصر ابن قيم الجوزية:

لقد كانت الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية في عهد ابن قيم الجوزية مزرية وظلامية عكس الحالة العلمية، وقد تميّزت بالإشعاع والإشراق إلى حدٍّ بعيدٍ، خاصّة في مصر والشام اللتين كانتا حاضرتي علم ومعرفة في العالم الإسلامي، يقصدهما المسلمون وطلبة العلم من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وقد كانت الشام في تلك الفترة متميّزة تميّزا عظيماً بفضل علماء كبار أمثال ابن قيم وغيره من علماء عصره كأبيه الذي أخذ عنه علم الفرائض وشيوخه ابن تيمية والشيرازي ومجد الدين التونسي وابن حجر العسقلاني وغيرهم ممّن أيّوه وعارضوه في أفكاره ومواقفه الدينية، ويبرز ذلك جلياً في العدد الهائل من المؤلفات التي تركها العلماء في تلك الفترة (صهيب بن عيسى المرزوقي، 1432هـ/1433هـ، ص41) والتي تزخر بها الآن المكتبات العربية، والإسلامية والعالمية، فقد تأثّر ابن قيم بتلك الظروف الثقافية واستفاد من الانفتاح الثقافي وحركات الترجمة الواسعة وبناء المدارس، إذ كانت الثقافة اليونانية إحدى أهم مصادر معرفته، فكان عالماً موسوعياً ألّف في فنون وعلوم كثيرة بالرغم من تميّزه بالمذهب السلفي الحنبلي والتعصّب له والتشبّث بالكتاب والسنة، كما كان موقفه موافقاً لمواقف غيره من علماء عصره خاصّة فيما يتعلّق بمقاومة العلوم العقلية والفلسفية مع أنّه كان مهتماً اهتماماً شديداً بالعقل والذكاء والتربية العقلية، هذه الأخيرة التي بنى ركانتها ومنهجها فيها على ثقافته الإسلامية الواسعة الموافقة لمذهبه الحنبلي،

حيث لم يتأثر بالعقل والآراء الفلسفية المختلفة والمتعددة، كما لم يتأثر تأثراً مُخلاً بالثقافة والفلسفة اليونانية (فكرت إبراهيم أحمد عوض، 2005، ص 51-52).

5- أهم مرتكزات ابن قيم الجوزية في التربية ما يلي:

1.5- العمل على غرس محبة الله ورسوله الكريم في نفوس الأبناء.
2.5- الاهتمام بالتربية العقلية للأطفال والتركيز عليها، والابتعاد بالأطفال عن كل ما من شأنه أن يروّعهم أو يفزعهم أو يُخيفهم، والعمل من خلال التربية على اطمئنانهم الروحي والنفسي.

3.5- التركيز على التربية الخلقية وجعلها مركزية في العملية التربوية، وتعويدهم على حسن الأخلاق واستعمال الألفاظ الحسنة، وحب الخير، وكراهية الشر.

4.5- المحافظة على الاستعداد النفسي الجيد وتنمية الميول والمواهب (حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص 31-32).

وإنّ الفكر التربوي عند ابن قيم فيرتكز على عناصر أساسية وجوهرية لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تجاوزها أو الاستغناء عنها، حيث تدور حولها العملية التربوية والتعليمية كلّها أهمها ما يلي:

5.5- الإنسان هو عنصرٌ أساسي في العملية التربوية والتعليمية، حيث إنّهُ كُرم بالعقل والفهم والبيان والعلم والنطق وحسن التقويم والفكر والأخلاق والحياء وغيرها، كما ميّزه تعالى بالقدرة على التعلّم بما وهبه من عقل ولسان يترجم به ما يختلج في عقله ويعبر عن الدافعية والرغبة والإرادة على التعلّم، وبالتالي فتربيته تربية سليمة تجعله يُحقّق أكبر مقصد شرعي من خلقه وهو الاستخلاف في الأرض (حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص 49-50).

6.5- كما أنّ الإنسان باعتباره المستخلف في الأرض، المكلف بإعمارها، فنحن ملزمون تربوياً بمعرفة واكتشاف ما تحويه النّفس البشرية، حتّى نستطيع تحديد ماهية التربية التي يحتاجها هذا الإنسان، هل الإنسان كلّ خير؟ أو كلّ شر؟ أو هو بين بين؟.

إنّ نظرة ابن قيم الجوزية في هذا الموضوع تنحصر في أنّ الشرّ حادثٌ على النّفس البشرية وليس من أصل خلقها [أي أنّ الشرّ ليس فطرياً]، وهو نوعان: عدم وجود، فصلاح النّفس عنده تتجلّى في العلم النافع والعمل الصالح، ولا توجد نفوس

هي شرٌّ مطلقٌ أو خيرٌ مطلقٌ، حيث إذا وُجد بعض الشرِّ في النفوس يمكن أن يزول ويختفي بترويدها وتربيتها، في حين قد تتحوّل النفوس الخيرة إلى نفوس خبيثة أو شريرة إذا توقّرت بعض الظروف والأسباب، أمّا العدم فالمقصود به عدم العلم والإيمان والصّبر وإرادة الخيرات وعدم العمل وغيرها... أمّا الوجود فالمقصود به الشر الوجودي كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة، فهو بذلك من لوازم ذلك العدم، وبالتالي كلّما انعدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النّفس، كلّما عوّضه الشرُّ والجهلُ وأخذاً مكانه في نفس الإنسان فيبرز في سلوكه وتصرفاته.

7.5- قدرته على التعلّم، حيث يميّز الإنسان في فكر ابن قيم التربوي بموهبة ربانية جُبلَ عليها، وهي القدرة على التعلّم، إذ هيّأه الله عزّ وجل وزوّده بآليات عضوية هي السمع والبصر والفؤاد وميّزه بها عن سائر مخلوقاته، ليكتسب بها العلم.

8.5- السعادة الإنسانية، ويُقسم السعادة التي ترغبها نفوس البشر إلى ثلاثة أنواع: أ- سعادة خارجية عن ذات الإنسان. ب- وسعادة في جسمه وبدنه. ج- وسعادة حقيقية. أمّا الأولى فمرتبطة بعوامل خارجية عن ذاته كالمال، والأولاد، وتوفّر متاع الحياة ومستلزماتها بصفة عامّة. وأمّا الثانية فتمثّلها صحّة الجسم والنّفوس واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه [الجسم] وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوّة أعضائه (ابن قيم الجوزية، 1419هـ-1998م، ص111)، أي السلامة الجسمية والعقلية والنفسية للإنسان. وأمّا الثالثة والأخيرة فهي سعادة نفسية روحية قلبية يكتسبها الإنسان، وهي سعادة العلم التي لا يتذوّقها إلّا من أحسّ بمتعة العلم وأهميته في حياة الإنسان، والمقصود بالعلم في فكر ابن قيم التربوي العلم النافع الذي يتجلّى في العمل الصالح، ولعلّ هذا العلم هو الذي يُلزم صاحبه في الدنيا والآخرة، حيث يُعتبر من الصدقة الجارية التي تنفع الإنسان في قبره ويوم القيامة.

ويرى ابن قيم أنّ كمال كلّ إنسان مرتبط بهمة تربيته وعلم يبصّره ويهديه، ولا ينال مراتب السعادة والفلاح إلّا من هلال هذين العنصرين أو على الأقل من خلال واحدٍ منهما، فقد يكون له علم بالهمة فلا يتحرّك بها، وقد يكون عالمًا بها إلّا أنّه لا تنهض همّته إليها فيبقى في الحضيض لا يفارقه ولا يرتقي، ويظلّ محبوس الطبع مصدود ومنكوس القلب، قد ركنَ نفسه مع الأنعام... ولا يتحقّق كمال الإرادة إلّا

بكمال مرادها أو غايتها، وأنَّ شرف العلم تابع لشرف معلومه ملازم له، وبهذا تتحقّق أيضاً سعادة العبد، فسعادته وحياته لا تكونان إلّا بها [الإرادة]، حيث تتعلّق إرادته بالمرتد الذي يبقى دائماً هو سيّد الموقف هنا، كما أنّ عزّمت تلك الهمة ترتفع إلى الله عزّ وجلّ، ولا يتحقّق هذا المطلب الأسمى الذي لا يناله إلّا ذو حظّ أوفى، وذو علم وُثِرَ عن رسوله صلى الله عليه وسلّم (ابن قيمّ الجوزية، 1419هـ-1998م، ص48) ويقول ابن قيم في هذا الصدد: "المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداهما معرفة الحقّ. الثانية عمله به. الثالثة تعليمه من لا يُحسِنُه. الرابعة صبره على تعلّمه والعمل به وتعليمه" (ابن قيمّ الجوزية، 1419هـ-1998م، ص58-59).

إذن فالتربية في فكر ابن قيمّ الجوزية تشمل تربية القلب والبدن في آنٍ واحدٍ، فهما عنده وجهان لعملة واحدة لا يمكن فصلُ بعضهما عن بعض، كما ركّز على تربية النشء والراشدين تربية خُلُقِيّة وسياسية وعقلية، وهنا يبرز فكره التربوي من خلال المبادئ والأسس التي اعتمد عليها في كتبه وفي ثنايا مباحثه في مجال التربية خاصّة في تركيزه على المتعلّم والمعلّم والمنهاج والأساليب والمبادئ التربوية (حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص51-53).

ولقد جعل ابن قيمّ العلم إمّامَ الإرادة ومقدّماً عليها ومفضّلاً ومرشداً لها (ابن قيمّ الجوزية، 1419هـ-1998م، ص49)، وقسّم العقل إلى قسمين: عقل غريزي وعقل مكتسب، ومن مميّزات صاحب العقل الغريزي عنده أنّه معدوم العلم والتجربة، وهي آفته التي تجعله دائماً مُحجّماً عن طلب العلم غير مقبل على انتهاز الفرصة، لأنّ عقله يكبّله عن ذلك لأنّه أصلاً لا علم له بها [أي انتهاز الفرصة]، بخلاف صاحب العقل المكتسب الذي يكون دائماً مقبلاً على الفرص لعلمه بها، مبادراً إليها، وهذا ما لا يقدر عليه عقله الغريزي، فصاحب العقل الغريزي يتّصف بالإحجام في حين يتّصف صاحب العقل المكتسب بالإقدام، فإذا تميّز الأوّل بعقل إيماني مصدره النبوة وكان عقله خالياً من النفاق وهموم المعيشة، اتصف أصحابه بالكذب، بحيث يوظّفون عقولهم لإرضاء النّاس باختلاف طبقاتهم، وجلب مودّتهم ومحبّتهم وعدم معاداتهم، وهنا يغيب طعم الإيمان لأنّ مرضاة الله عزّ وجلّ لا تتحقّق إلّا بمعاداة من يعادي الله

ويشاققه، وبذلك فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله (ابن قيم الجوزية، 1419هـ-1998م، ص121).

6. الأسس التي قام عليها الفكر التربوي عند ابن قيم:

1.6- الفلسفة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة خاصة ما تعلق منهما بـ: الخالق، العقل، النفس، والطبيعة الإنسانية.

2.6- التربية الخلقية: حيث ربط ابن القيم النفس بالخلق، ويظهر ذلك جلياً من خلال تعريفه للأخلاق بقوله: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سُميت خُلُقاً حسناً وإن كانت قبيحة سُميت خُلُقاً سيئاً)... وهي (الأخلاق) قابلة للتغيير والتعديل... ولا يكون كمال الأخلاق إلا عن طريق تربية النفس وتهذيب تلك الأخلاق وتغذيتها بالعلم...، كما أن علاج الأخلاق السيئة يكون عن طريق معالجة الجهل بالعلم أيضاً (حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص70)، إلى غيرها من العيوب والأخلاق الكثيرة التي يتميز بها الإنسان كالنبل والغرور والحسد وهلم جرا، وهي تحتاج إلى تغيير بالتربية بنقيضاتها كالسخاء والكرم والتواضع وحب الخير للجميع... هذا، ولقد كان لتركيزه على الأخلاق في العملية التربوية خاصة وفي السلوك عامة الأثر البالغ في وضع أسسه وتصوّراته الفلسفية في بناء الفكر التربوي الذي سيبلور شخصية الإنسان في تعامله وعلاقته بالآخرين (مصطفى عشوي، 2015، ص89) ومن خصائص تفكير ابن قيم الجوزية: 1- الوضوح. 2- الدقة المتناهية. 3- ترابط الأفكار. 4- العمق. 5- التوسع وإعطاء التفاصيل. 6- المنطقية (أحلام عبد اللطيف الملا، لطيفة صالح السميري، 1434هـ/2013م، ص96)، وما زاد فكره ورجاحة عقله وضوحاً وثبتت ركائز منهجه التربوي خاصة ومنهجه العلمي عامة قدرته ومهارته في التفكير الناقد والإبداعي، ويظهر ذلك أكثر في مهارته: التقويمية، والاستنتاجية، والاستقرائية، والاستدلالية، ومهارة المرونة في تحليل الظواهر والتعامل معها، ومهارات: المقارنة والتباين، وتحديد العلاقة بين السبب والنتيجة، وتحديد الأولويات، والتحليل، والتشبيه، والوصف، وطرح الأسئلة، والتعميم (أحلام عبد اللطيف الملا، لطيفة صالح السميري، 1434هـ/2013م، ص100-106).

7. مبادئ التربية عند ابن قيم الجوزية:

1.7-مراعاة الفروق الفردية. 2.7-استخدام أسلوب الحفظ. 3.7-الربط بين العلم والعمل. 4.7-عدم الجمع بين أكثر من علم في آن واحد لقوله(ابن القيم): وأن لا يُشرع في فنٍ حتّى يحكم ما قبله. 5.7-الدعوة إلى عدم التقليد. 6.7-الاهتمام بقيمة الزمن واستغلاله. 7.7-الثقافة والمطالعة. 8.7-التربية المستمرة. 9.7-التعلّم الذاتي. 10.7-الاهتمام بالعقل وتدريبه. 11.7-العزلة والاختلاط. 12.7-الربط بين الحفظ والفهم. 13.7-الدعوة إلى علو الهمة(حسن بن علي بن حسن الحجاجي، 1408هـ-1988م، ص101-121).

فهو ينظر للعلم نظرة خاصّة حيث يقول: أنّ الله عزّ وجل جعل العلم للقلوب مثلاً جعل المطر للأرض، فكما أنّه لا حياة للأرض إلّا بالمطر، فكذلك لا حياة للقلب إلّا بالعلم... وللعلم عنده ستّ مراتب: أولها حُسن السؤال. الثانية حُسن الإنصات والاستماع. الثالثة حُسن الفهم. الرابعة الحفظ. الخامسة التعليم. السادسة التي تعتبر ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده (ابن قيم الجوزية، 1419هـ-1998م، ص173-174).

وعموماً تنحصر أسس المقاربة الإسلامية للتربية في العناصر الآتية:

1-حقيقة الألوهية. 2-حقيقة الكون. 3-حقيقة الإنسان. 4-حقيقة الحياة(مراد سبرطعي، 2018/2017، ص199).

إنّ رسم صورة للإنسان في واقعه وفي ميثاليته من القرآن الكريم بسند من السنّة النبوية الشريفة المفسّرة له أو صياغة نظرة شاملة متكاملة عنه لا يتأتّى إلّا من خلال التعمّق في فهم القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده، وهذا يتطلّب سعة اطلاع ودراسة كبيرة بالموضوع(ماجد عرسان الكيلاني، 1405هـ/1985، ص7).

8. أهداف التربية الإسلامية:

إنّ الهدف الأوّل والأسمى من التربية الإسلامية هو تنشئة الفرد ثمّ المجتمع المحلي على الفضيلة وفق مبادئ إسلامية وأخيراً المجتمع الإنساني عامّة، يليه الهدف الثاني وهو بلوغ أسباب السعادة في الدنيا مع نيل أسباب النجاح في الآخرة، بأسلوب متكامل

متناسق، من خلال الامتثال لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويظهر ذلك من خلال العناصر التالية:

1.8- إدراك الإنسان ومعرفته اليقينية بخالقه، مع نسج علاقة وثيقة بينهما يكون أساسها إدراك واحترام واجبات المخلوق تجاه الخالق وإخلاص العبادة له.

2.8- الرقي بسلوك الفرد وتغيير اتجاهاته بما يخلق توازناً وانسجاماً محكمين مع الاتجاهات الإسلامية.

3.8- تدريب الفرد على مواجهة متطلبات الحياة المادية وفق آليات ومبادئ إسلامية.

4.8- تقوم الأمة الإسلامية على أسس وروابط عقدية وتشريعات أساسها العدل والانصاف بين الجميع، مهما كان لون بشرتهم أو وظيفتهم أو مركزهم الاجتماعي... وأن الإسلام هو الرابطة التي تربط بين الناس وليس العصبية القبلية وغيرها، بحيث يجسد الانتماء إلى العقيدة الإسلامية كمال الدين وصحة الإيمان بالله.

5.8- جعل الوحدة بين المسلمين الأساس الذي يصبو المسلم إلى تحقيقه ثم التوجه بالرسالة الإسلامية إلى العالم.

6.8- غرس الإيمان بوحدة الإنسانية والمساواة بين البشر (ماجد عرسان الكيلاني، 1405هـ/1985، ص34-36) امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: (أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى) ومراعاة حقوق الجميع وفق تعاليم الإسلام.

وبهذا، فالتصور الإسلامي للتربية يعرفها بأنها: "نظام من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة والمعارف والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة، نابع من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، يهدف إلى تربية الإنسان وإيصاله إلى درجة كماله التي تمكنه من القيام بواجبات الخلافة في الأرض عن طريق إعمارها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله" (مراد سبرطعي، 2018/2017، ص197-198)، وهي مهمة تجعل الإنسان يسعد في الدنيا وينال أسباب الحياة الكريمة، ويسعد في الآخرة بنيل رضا الله عز وجل والجنة بتحقيق كل معاني الاستخلاف في الأرض وفق منهج شرعي يحقق الغاية الأسمى من التربية الإسلامية.

9. أساليب التربية عند ابن قيم الجوزية:

من أساليب التربية عند ابن قيم الجوزية:

أ- أسلوب الحوار والمراسلة.

ب- أسلوب التنسيق والتبويب والتصنيف على أساس معقول.

ج- أسلوب التربية بآيات الله في الآفاق وفي أنفسنا (عبد الرحمان النحلاوي، 1411هـ- 1991م، ص 295-341).

10. وسائل العلم والتعلم وآلياته عند ابن قيم الجوزية:

لقد أدرك ابن قيم حقيقة الإيمان بالله تعالى وسُبل الوصول إلى اليقين بوجوده وتحقيق عبودية الإنسان له، فخصّ الأنبياء والرسل بتبليغ رسالاته وتربية الخلق وفق منهاجه، وختمها بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في تربية الأمة فكانت أول كلمة نزلت عليه هي "اقرأ"، ولعظمة العلم في الإسلام وأهميته كرّر الخالق تعالى هذه الكلمة ثلاث مرات، حتّى تتمكّن في نفس النبي وترسخ في عقله، فبالعلم تتحقّق الغاية من العبادة، كما تتحقّق التربية بالعلم، وهذا ما استغلّه ابن قيم وبنى عليه فلسفته التربوية بالرجوع إلى فهم ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث الإسلامي من أفكار ومبادئ في تربية النفس البشرية، فأسس أهدافه ومناهجه وطرائقه وفقها مركزاً على مفهومه للتربية، ثمّ تقع مسؤولية التربية بعد ذلك على عاتق الأسر والأولياء والمربّين والعلماء ومؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة كالمدرسة والمسجد وغيرها.

لقد كان لابن قيم في التربية بعد نظر، ورؤية ثاقبة، حيث نادى بتطبيق المنهج العلمي الأصيل الذي يميّز بالحجج والبراهين والبيانات التي لا يشوبها شكّ أو صدفه، ولا تتنافى والأسس العلمية، مع دعوته الصريحة للتخلي (ولهدم) مطلقاً عن المناهج السابقة المبنية على الخرافات والأوهام والبدع والضلالات وغيرها، بما ينفع المجتمع، وهو ما يبرز في جلّ دراساته وكتبه، هذا إلى جانب ما هو مبثوث فيما وصلنا من كتبه من أفكار نيّرة ذات الصلة بطرائق التدريس المختلفة وأساليبه ومفاهيمه الإجرائية في ذلك، فهو كثيراً ما يرشدنا ويوجّهنا إلى ما يجب أن يفتتح به المعلّم درسه، من ذكر الله عزّ وجل والصلاة على حبيبه المصطفى، ثمّ ختمه بالدعاء، فضلاً على ما يتخلّل علمه من دعوة إلى تحقيق العدل والمساواة بين طلبة العلم، والاهتمام بالفروق

الفردية والاجتماعية الدقيقة بينهم ومراعاتها، -وهذا من صميم إرشادات وتوجيهات علماء التربية المعاصرين- مع ضرورة التحكّم في الفصل الدراسي وتنظيمه بما يحقق الأهداف التعليمية المرجوة، وتطبيق الأساليب الحوارية التي من شأنها خلق جو تواصل وحوار بين المعلّمين والمتعلّمين فتزداد الثقة والتفاعل بين الطرفين وتتعمّق المعارف العلمية وترسخ في عقول المتعلّمين بفعل الخبرة الكبيرة للمعلّمين، وهذا ما يكسب المتعلّمين أيضًا المهارات الخطابية وفنون الإلقاء وعرض المعلومات والمعارف، مع التركيز على ضرورة الاهتمام بتربية حواس المتعلّمين في التدريس(داود عبد القادر إيليغا، وأيمن عايد محمد، 2015، ص671)، فالتصفّح لكتابات ابن قيم في التربية والتعليم يجده أولى اهتمامًا خاصًا لبعض آلات ووسائل العلم والتعلّم العضوية التي خلقها الله سبحانه تعالى في الإنسان وشرفه بها وجعلها من أكبر نعمه عليه، ونقصد بها: الفؤاد والسمع والأبصار لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء، الآية: 36] فالسمع والبصر قريبان إلى العقل والقلب، وبالتالي إلى العلم والمعرفة، ولهذا اقترن السمع والبصر والفؤاد في الآية الكريمة، ويعتبر الفؤاد مستقر حب العلم وشغفه.

إنّ هدف المجتمع الأسمى المرجو تحقيقه في الواقع الاجتماعي هو أن تتحوّل التربية إلى فعل حضاري ثقافي هادف، يكون فيه الفرد هو الحلقة المركزية في هذا الفعل أو العملية التربوية، بحيث تُطبّق أنجع الطرق العلمية والأساليب التربوية لبناء هذا الفرد فكريًا وسلوكيًا وروحيًا ووجدانيًا وجسديًا وأخلاقيًا ليكون صالحًا ويؤدي رسالة في المجتمع، وليصون البناء الاجتماعي ويُرسخ ذاتية المجتمع، ويُقوي علاقاته وروابطه ليحافظ على تماسكه وينمي ويطور إمكاناته ثم تحقيق تطلّعاته، وعليه فالتربية بهذا المفهوم ما هي إلّا شكل من أشكال القوة التي تصون وتحمي المجتمع نفسه، وتحقّق له حاضره ومستقبله بصياغة مشروع حضاري متين(دحمان زيرق، 2016/2015، ص44).

11. مقومات التربية الإيمانية وأعمال القلوب عند ابن قيم الجوزية:

إنّ التربية لا محالة تقوم على مقومين أساسيين، الأول فلسفتها وأهدافها وأسسها، والثاني طرائقها ووسائلها، وبدون هذين المقومين لا يمكن أن تؤدي (التربية) وظيفتها

على أكمل وجه (ماجد عرسان الكيلاني، 1405هـ/1985، ص8)، حيث تهدف التربية إلى تغيير الواقع الاجتماعي وتحقيق الرقي الحضاري واكتساب المعارف العلمية والأخلاقية وتكوين مجتمع متماسك متحضر وهذا يتطلب إصلاح وتغيير الذات من الداخل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد، الآية: 11]، بشرط ألا نرتمي في أحضان الغرب وتقليده بداعي ترك كل ما هو تقليدي أي إهمال النظم التربوية الموروثة واستبدالها بنظم تربوية أخرى دخيلة ومستعارة (ماجد عرسان الكيلاني، 1405هـ/1985، ص11).

هذا ويمكن حصرهم مقومات التربية عند ابن قيم في العناصر الآتية:

1- التوبة. 2- الخوف. 3- الرجاء. 4- التوكل. 5- المحبة (فتح المعين، 2013، ص98 وما بعدها). 6- تحسين الأخلاق امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرَاوُونَ وَالتَّشَدُّقُونَ وَالتَّمْتِيقُونَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالتَّشَدُّقُونَ، فَمَا "التَّمْتِيقُونَ"؟ قَالَ: التَّكْبَرُونَ، أَمَّا التَّشَدُّقُونَ فَهُمْ الْمُتَطَاوِلُونَ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِهِمْ (منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص511-513). وحسن الخلق عند ابن قيم قسمان: الأول مع الله عز وجل، وهو أن يعلم أن كل ما يكون منك يوجب عذراً، وكل ما يأتي من الله يوجب شكراً وامتناناً له عز وجل، وأن العيب من الإنسان وأعماله، أما الثاني، فهو حسن الخلق مع الناس، ولا يتم ذلك إلا من خلال: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذى عن الآخرين باللسان والأفعال، وهذا له أركان خمسة: العلم، الجود، الصبر، طيب العود، وصحة الإسلام، فبالعلم يدرك الإنسان معالي الأخلاق وربيئها، فيترك الرديئة ويتخلّى عنها، أما الجود فيظهر في نفسه السمحة، وأما الصبر فهو من شيم الأنبياء والصالحين، وأما طيب العود فيتصف به من كان سريع الاستجابة لدواعي الخيرات، وأن الله قد جبل نفس الإنسان على طبيعة سهلة تجعله ينقاد وينساق إلى كل خير، أما صحة الإسلام فتبرز في قوة الإيمان وتصديق الجزاء ووعد الله تعالى وثوابه، وهذا ما يجعل الإنسان يعمل على تحسين أخلاقه (منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص511-513).

لقد قرن ابن قيم العلم والإيمان لأهميتهما معاً في الدنيا والآخرة وجعلهما متلازمين بل ومتلاحمين يقول: "أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة: هو العلم والإيمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة، الآية: 11]. وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية" (ابن قيم الجوزية، 1421هـ-2000م، ص 66-67).

إنَّ الفهم العميق لطبيعة العملية التربوية لا بدَّ أن تمر بركيزة أساسية تقوم عليها وهي التربية الخلقية، وبها يتم بناء الأسس المتينة والقوية للمجتمعات المتحضرة، ذلك أنَّ الوظيفة الجوهرية والأساسية للتربية هي بناء الإنسان، ولن يتم ذلك إلاَّ ببناء الفكر وتنمية القيم وتعديل السلوك، وبناءً على ذلك فالتربية الخلقية ترقى بالعملية التربوية إلى بُعْدِهَا الإنساني (أيمن عايد محمد ممدوح، 2015، ص 538)، وإنَّ من أهم خصائص ومميزات التربية أنَّها حلقة تواصل وتفاعل مستمرين بين الفرد والبيئة الاجتماعية التي تحتضنه ويعيش فيها، وبالضرورة المجتمع الذي يعيش فيه بأفراده وثقافته وكلَّ ما يتَّصل به، وبمعنى آخر أكثر دقةً فالتربية "عملية خلق اجتماعي وتجديد ثقافي وحضاري، حيث تغيّر وتجدد في شخصيات الأفراد، وفي العلاقات التي ينظمونها ويعيشون بوساطتها" (أيمن عايد محمد ممدوح، 2015، ص 545-546).

أمَّا في الإسلام فالمقصود بالتربية: بلوغ الكمال بالتدرج ويقصد بالكمال هنا كمال الجسم والعقل والخلق، حيث إنَّ الإنسان ذاته هو موضوع التربية" (أيمن عايد محمد ممدوح، 2015، ص 545).

إذن تعتبر التربية أكثر من ضرورة لتحقيق لحمة المجتمع والحفاظ على تجانسه وتماسكه وصحة بنائه، وهذا ما يضمن لها تحقيق نهضة اجتماعية راقية، حيث إنَّ الشرور والتعدي على الحقوق وهضمها يجعل وحدة المجتمع وبناءه عرضة للتمزق والانحلال، وإنَّ خطر توسع العداوة يعود إلى الظلم بين النَّاس وهو أيضاً من أهم عوامل تمزق البناء الاجتماعي، وتعتبر التربية الأخلاقية الإسلامية سداً منيعاً ضد عدوان النَّاس وشرورهم لأنَّها الكفيلة بتزكية النفوس وإبعاد أفراد المجتمعات عن تلك الشرور ومحوها من نفوسهم، وهي من أهم وسائل وآليات تحقيق سعادة البشر

وطمأنينة حياتهم الاجتماعية وتماسكها، فانتشار الانحراف والرّعب في الحياة الاجتماعية سببه الشرور الكامنة في النفوس، والتعاسة الاجتماعية والشقاء منشؤهما ومنبعهما تلك الشرور، وعليه فالتربية الأخلاقية أفضل وأرقى آلية لتربية الناس وإزالة شرورهم والقضاء على الفتن، وهذا بالضرورة كفيل بنشر المحبة بين الناس في الحياة الاجتماعية، وأحد أقوى ركائز تحقيق السعادة في المجتمع، كما تكفل أيضًا تربية الأجيال ودفعها إلى المنافسة في الفضائل والخيرات، وكلّما تجذّر الخير وساد بين الناس زال الشر وانمحي أثره في المجتمع (مقداد يالجن، د، ت، ص6)، وبناءً على كلّ ذلك فإنّ أسس التربية الأخلاقية الإسلامية لا تخرج عمّا يلي:

-الأساس الاعتقادي. -الأساس العلمي. -الأساس الإنساني. والأساس الجزائي (مقداد يالجن، د، ت، ص189-378)، وهذا الأخير يمكن أن نعبر عنه بقولنا النتيجة من جنس العمل، أي كلّ شخصٍ يجازى بحسب أفعاله، فإذا تحلّى بالأخلاق والفضيلة نال الرضا عن نفسه وتمتّع بالسعادة، أمّا إذا تحلّى بالزيلة فستقع به في الشقاء، وهذا ما يُعبّر عنه بعض الفلاسفة والعلماء عند حديثهم عن الأسس العلمية كيف أنّ الله وضع ثوابه وعقابه في القوانين الطبيعية الأخلاقية (مقداد يالجن، د، ت، ص357).

هذا، وقد جعل ابن قيم للتربية شروطاً ومواصفات لا بدّ أن تتوفّر في الشخص حتّى يبلغ مرتبة الرقي والتقوى والرضا الرباني أهمها:

1-الابتلاء (منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص781) الذي به يبلغ أسمى المراتب والمقامات: فالابتلاء لا يعطى إلّا لذي حظٍ عظيم كالأنبياء والمؤمنين ومن اقتدى بهديهم لينالوا ما هو أعظم من ذلك بكثير، لأنّ الابتلاء امتحان من الله عزّ وجلّ ظاهره محنة وباطنه كلّ رحمة ومنة ونعمة وما لا يخطر على قلب بشر من حكّم (منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص802-805)، كقوله صلى الله عليه وسلّم: والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلّا كان خيراً له، وليس ذلك إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له - حيث إنّ تَرَكَ الإنسانُ أمراً لوجه الله تعالى أعطاه الله أضعافاً مضاعفة ممّا ترك وكان جزاؤه أضعافاً مضاعفة أيضاً، وما قصص أنبياء الله ورسله جميعاً في الابتلاء إلّا خيرٌ مثال على ذلك، فالابتلاء أسلوب راقٍ من أساليب القرآن في التربية الروحية وتقوية

القلوب على الصبر والإيمان والتغلب على الشدائد ومتاعب الحياة، فأهل الفجور من الكفار والملحدين والظلمة ومن سار في طريقهم من المسلمين وغيرهم يتعمون بالأموال والرياسة ورغد الحياة، بينما تكون ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون، الآية:8]، والعاقبة للمتقين(منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص784) وهذه من حقائق الإيمان، أما ما يلحق الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه، فهو في حقيقة الأمر بباطنه ذل وهوان وخزي عكس ما يدل عليه ظاهره(منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص794)، وله في الآخرة بنس الدار.

2-تحمل أذى الخلق: باعتباره مشيئة إلهية وقضاء وقدرًا، وبالصبر والعفو والصّبح والحلم والرضا والإحسان لمن أساء إليك وتتحقّق أعلى مراتب الإيمان، وبصرف القلب عن الثأر وجعله سليمًا خاليًا من الحقد والغل والوساوس والصفات المذمومة وإشغال القلب بالخير وعدم إعمال الفكر في الانتقام، وهذا ما يُحقّق الأمن للقلب وللإنسان، والتخلي بالإسوة الحسنة لجلب من أساء إليه، ومجاهدة النفس والعفو عند المقدرة، والإحساس بنعم الله عزّ وجل عليه، وهو بجلال عظّمته وكبريائه وسلطانه الماسح الكريم، فما بالنا بالبشر الضعفاء، وغيرها من الفضائل الإيمانية، المؤدية إلى معرفة توحيد الله عزّ وجل حقّ توحّيده(منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص805-811)، وما عدا ذلك فهو لا قيمة له، وبذلك تتربّى نفوس البشر.

إنّ أسمى ما تصبو إلى تحقيقه التربية الأخلاقية الإسلامية هو القيم التي تستثمر في بناء شخصية الإنسان المسلم وتقوية رابطته مع الخالق تعالى، فتتحقّق بداخله رقابة الله عزّ وجل الوجدانية الآلية فيظهر ذلك في سرّه وعلمه، وبالتالي في سلوكاته كلّها، حيث لا يمكنه الخروج عن حدود الله وأوامره ونواهيه، وبذلك يعمر قلب المسلم بالخشية والخوف من الخالق تعالى من جهة، ويتوجّه إليه بالرجاء من جهة أخرى، وعليه يملأ هذان النقيضان[الخوف والرجاء] قلب المسلم شعورًا بالاطمئنان والتخلّص من كلّ القيود والمخاوف، لأنّ إيمانه بالله يجعله حقًا يستشعر يقينًا بأنّه تعالى هو الضارّ والنافع لوحده(إيمان محمد مبروك، 2015، ص583)، وهذا يحقّق للإنسان السكينة النفسية وهدوء القلب، وهو أسمى ما يمكن أن تظهر فيه التربية الخلقية الإسلامية.

كما حدّد ابن قيم بدقّة أصل مرض النفوس وسوء الأخلاق، حتّى يتجنّبها المرء ويربي نفسه على الأخلاق الفاضلة، فأرجع أصل جميع الأخلاق المذمومة إلى الكبر والمهانة والدّناءة... واعتبر الفخر والبطر [الطغيان والاستخفاف بنعم الله...] والأشُرّ والعُجْب [الرّهو والكبر] والحسد والبغيّ والخِيلاء والظُّلم والقسوة والتجبرُ والإعراض ورفض قبول النصيحة والاستنثار وطلب العلوّ وحب الجاه والرئاسة وأنّ يحمّد بما لم يفعل وغيرها أساسه ومنشؤه الكبر، فالكبر مصدر كلّ شرٍّ، كما حدّد لنا مواصفات الأخلاق الفاضلة وشمائلها وجعلها في حقل دلالي واحد يشمل الصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم، بالإضافة إلى العفو والصّفح والاحتمال والإيثار وعزّة النّفس عن الدّناءات والتواضع والقناعة والصّدق والإخلاص والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلّات الناس وترك الاشتغال بما لا يعني المرء، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، وهي كلّها خصال وشيم مصدر الخشوع وعلوّ الهمة (ابن قيم الجوزية، 1429هـ، ص 209) لا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم.

كما جعل ابن قيم الصّدق أساس التّربية وصفاء القلوب ونهى عن الكذب لأنّه يشوّه الحقائق ويزيّف المعلومات ويصوّرها ويُعلّمها للناس بصورة مغايرة ومخادعة، فيصير الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ويزين الشرّ فيجعله خيراً ويقبّح الخير فيجعله شرّاً، وهذا ما يؤثّر في السامع (المخاطب) فيفسد عليه تصوّره وعلمّه ممّا يجعله يتّخذ قرارات غير صائبة، وسلوكات خاطئة وباطلة، فنفس الكاذب تكسوها غشاوة تحجب عنها الحقيقة وتتنزع بها إلى العدم، فيصبح لسانه مكبّلاً عن الصّدق مندفعاً إلى الجور والفجور، لأنّ الكذب منبع الفجور قال: النبي صلّى الله عليه وسلم: (إنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار).

إنّ اللسان هو أوّل محطّات الكذب بعد النّفس، ثمّ ينتقل الكذب إلى الجوارح فيسد عليها أعمالها، فتصطبغ الأقوال والأعمال والأحوال بصبغة الكذب، فيتجذّر فيها الفساد ويتّسع دائره، إلى أن يلقي بصاحبه إلى الهلكة والخسران (ابن قيم الجوزية، 1429هـ، ص 197-198).

أمّا أركان حسن الخلق فقد حصرها ابن قيم الجوزية في أربعة أركان: الصبر، العفة، الشجاعة، والعفو (منصور بن محمد المقرن، 1426هـ/2005م، ص 513-514).

12. أسس ومبادئ التربية عند ابن قيم الجوزية: تربية الأطفال نموذجاً

كما كان لابن قيم جهود كبيرة في مجال التربية فقد جعل نصيباً وافراً لأساليب ومناهج تربية الأطفال منذ ولادتهم، وخصّص أبواباً لذلك في كتابه تحفة المودود بأحكام المولود، ويظهر ذلك جلياً ابتداءً من الباب الخامس عشر: المعنون بـ: في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم: حيث بيّن أساليب تربية الأطفال على التآدب وطاعة الله وعمل الخير، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه في معجم الطبراني سماًك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لأن يؤدّب أحدكم ولده خير له من أن يتصدّق كلّ يوم بنصف صاع على المساكين» (ابن قيم الجوزية، 1391هـ / 1971م، ص225)، وهنا تقع المسؤولية الكاملة على عاتق الوالدين، ولن يتأتّى لهما ذلك ابتداءً إلّا من خلال أمرهم لأبنائهم بالصلاة في سبع سنوات وضربهم عليها في عشرٍ لأهميتها في تربيتهم على التآدب وفضائل الأخلاق باعتبارها ركناً أساسياً من أركان الإسلام وعموده الفقري، ومرافقتهم في كلّ شؤون الحياة، وقد قرن علي بن أبي طالب رضي الله عنه العلم بالتآدب في قوله: "علّمهم وأدّبهم، وقال الحسن: مروهم بطاعة الله وعلّمهم الخير" (ابن قيم الجوزية، 1391هـ / 1971م، ص224)، والتآدب من أهم مميزات الأخلاق.

لم يترك ابن قيم الجوزية دقائق التفاصيل في تنشئة الطفل وتربيته منذ ولادته وما يجب على والديه القيام به لتكون تلك التنشئة الاجتماعية مبنية على قواعد تربوية صحيحة وأهداف واضحة المعالم، أسسها شرعية واجتماعية، ستحدّد مصيره التربوي والديني في المستقبل، فبدأ بذكر استحباب طلب الأولاد، وإسقاط حكم الجاهلية كالسخط على التبشير بولادة البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوين، الآية: 08]، حيث كان الرجل الذي تُولد عنده أنثى يصير وجهه كظيما عبوساً بسبب العادات والتقاليد الاجتماعية البالية والعصبية الجاهلية التي كانت تنتظر للبنات (الأنثى) نظرة تشاؤم وعار، وهنا يفرض ابن قيم الجوزية نظرة مغايرة تماماً لقيمة ومكانة البنت في المجتمع، وأنّ الإسلام كرّمها مثل الرجل وجعل منزلتها رفيعة حيث لولا وجودها لما وجد البشر أصلاً، وأنّ الرجل الذي يحسن تربية البنات له الجنة.

كما جعل الإسلام من حقوق الأبناء على الآباء حسن اختيارهم لأسماء أبنائهم وحسن تأديبهم وتربيتهم وتعليمهم كل ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، مصداقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي والنسائي: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)، وفي المقابل وجوب برّ وطاعة الأولاد لأبائهم ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: 23]، كما جعل من حقوق الأولاد مهما كان جنسهم وجوباً على والديهم العدل بينهم في العطاء والمنع، وهذا ما يُعزّز فيهم الثقة ويبعث في نفوسهم الشعور بالأمان والحب فتكون تربيتهم متوازنة نفسياً واجتماعياً وهذا من شأنه أن يقوي أوصل المحبة بينهم، ويجعل صلة القرابة الأسرية والعائلية كالحبل المتين، فإِنَّ أَهْمَلَ تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى، فقد أساء إليه غاية الإساءة [ابن قيم الجوزية، 1391هـ/ 1971م، ص229]، لأنّ النتيجة من جنس العمل، فإذا قام الوالدان بتربية أبنائهم تربية صالحة وعلموهم من فرائض الدين وسننه، كانوا لهم ذخراً في الكبر ويوم القيامة.

وقد خصّص ابن قيم الباب السادس عشر لفضل ومنافع تربية الأطفال على آبائهم وعواقبها أثناء الكبر، وهذا في الحقيقة منهج تربوي للآباء قبل الأبناء. ولهذا جعل ابن قيم من اليقظة مفتاحاً للخير (ابن قيم الجوزية، د، ت، ص631)، وجعل أصول المعاصي ثلاثة: الشرك والظلم والفواحش.

وقد خصّ ابن قيم السلوك والتربية بعناية كبيرة وأولى لتربية الأطفال رعاية خاصّة جدّاً وركّز عليها بشكل لافت، لأنّ لتلك الرعاية أثراً بالغاً فيهم باعتبارهم رجال المستقبل، فخصّص كتاباً لذلك تحت عنوان: [تحفة المولود] وقد تناول خاصّة في الباب السادس عشر من هذا الكتاب [فصولاً نافعة في تربية الأطفال تحمد عقباها عند الكبر].

ومن هذه الفصول فصلٌ في الرضاعة وفصل في التغذية وفصل في تدريب الطفل على النطق، وفصل في أهمية البكاء من الناحية الفسيولوجية وفوائده، وفصل في تمرين وتدريب الطفل على الحركة، وفصل في وقاية الطفل من الأمور المفزعة كالأصوات الشديدة والمناظر المزعجة، لِمَا لذلك من تأثير سلبي على القوة العاطلة عند الطفل، وشرح ابن قيم علاج الطفل عند تعرضه لمثل هذه الأمور السلبية ثمّ خصّص فصلاً لقطامه، حيث ذكر أنّ مدّة الرضاعة الكاملة سنتان كاملتان مصداقاً لقوله تعالى:

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة...﴾ [البقرة، الآية: 233].

وقد ركّز ابن قيم بعد ذلك على ضرورة التدرّج في الفطام، وهذه قضية تربوية هامة إذ إنّ مفاجأة الطفل بالفطام دفعة واحدة قد يفقده الشعور بالأمان والاطمئنان، وبالتالي يفقده الثقة في نفسه والثقة فيمن حوله من الأهل والأقارب.

ومن الفصول المهمة أيضا في هذا الباب تربية الطفل على أخلاق حميدة، حيث إنّ الطفل كما قال ابن قيم: ينشأ على ما عوّده المربي في صغره من حرد (حقد وإصرار على الباطل) وغضب ولجاج (التمادي والعناد) وعجلة وخفة مع هواه وطيش وحدة وجشع فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك وتصير هذه الأخلاط صفات وهيئات راسخة (مصطفى عشوي، 2015، ص 86-87).

إنّ المتصفح الدقيق لكتاب "تحفة المولود" لابن قيم يجده يزخر بالتوجيهات والنصائح القيّمة والمفيدة لتربية الأطفال، حيث مزج بناءه الفكري لتلك التوجيهات والنصائح بما هو موجود في القرآن الكريم خاصّة والنصوص الشرعية عامّة وبالمعطيات والمعلومات الطبية والتربوية التي كانت متوقّرة في عصره، وما زاد تلك النصائح الأخلاقية قيمة وفائدة أعظم هو تجاوزه الجانب النظري وتركيزه على التوجيهات العملية التطبيقية، وهذا من شأنه تنشئة الصبيان والفتيان تنشئة علمية تؤهّلهم لخوض غمار التخصصات العلمية والحياة المهنية عموماً.

13. الخاتمة:

لقد كان لخبرة ابن قيم الجوزية للنفس البشرية وأغوارها وللحياة الاجتماعية بمفارقاتها وتناقضاتها، واحتكاكه بالفلسفات والثقافات المختلفة، الأثر البالغ في صقل موهبته التربوية ممّا جعله خبيراً ومفكراً تربوياً وعالمًا نفسيًا واجتماعيًا إضافة إلى كونه فقيهاً، فزودنا بجملة من المقاربات التربوية العلمية والعملية التي لا مناص منها اليوم في ميدان التربية والتعليم، حيث وضع لنا أسسا ومبادئ وأساليب للتربية مستوحاة من فهمه العميق لمقاصد التربية وأهدافها، وقد زادها رونقا اطلاقه الواسع على العلوم الشرعية وتمكّنه من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكذا فهمه الدقيق للسلوك الإنساني عامّة بإجابياته وسلبياته في مختلف مراحل العمر، وتعمّقه أيضًا في تحليل أسرار الأخلاق وكلّ ما يتّصل بها وبالتربية، وبذلك كان فكره التربوي مؤسسًا وفق مبادئ عقلية وعقدية واجتماعية أساسها الدين الإسلامي، جعلت منه منظرًا تربويًا قلّ له نظير قديمًا وحديثًا.

المصادر والمراجع:

- 1- داود عبد القادر إيلغا، وأيمن عايد محمد، آراء ابن القيم وأفكاره التربوية في ضوء نظريات الفكر التربوي الحديث-جون ديوي نموذجًا- رؤية نقدية مقارنة، مجلة جامعة المدينة العالمية [مجمع]، العدد الرابع عشر، ماليزيا، أكتوبر 2015.
- 2- ابن قيم الجوزية [691-751هـ]،
أ- تحفة المؤدود بأحكام المولود، حققه وخرّج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، دمشق 1391هـ/ 1971م.
ب- الفوائد، تحقيق محمد عزيز شمس، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، 1429هـ.
ت- كتاب الروح، حققه محمد أجمل أيوب الإصلاحي، خرّج أحاديث كمال بن محمد قالمي، المجلد الأول، دار عالم الفوائد، المملكة العربية السعودية، د. ت.
ث- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، الجزء 1 و2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م.
ج- مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية، [691-751هـ]، جمعها صالح أحمد الشامي، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، دمشق، 1421هـ-2000م.
3- حسن بن علي بن حسن الحجاجي، الفكر التربوي عند ابن القيم، دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، 1408هـ-1988م.
4- دحمان زريق، التربية في الفكر الإسلامي المعاصر، محمد الغزالي [نموذجًا]، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع، تخصص: علم اجتماع التربية، جامعة محمد خيضر- بسكرة-، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، 2015/2016.
5- مراد سبرطعي، المقاربة الغربية للظاهرة التربوية، دراسة نقدية لأبرز المداخل النظرية في علم اجتماع التربية، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم اجتماع التربية، جامعة محمد خيضر- بسكرة- كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، 2017/2018.
6- مصطفى عشوي، الإنسان في فكر ابن قيم الجوزية-دراسة نفسية تربوية-، الراسخون، السيكولوجيا من منظور التراث النفسي العرب إسلامي، لجنة التراث النفسي العرب إسلامي، مؤسسة العلوم النفسية العربية، العدد 12، دون ذكر البلد، 2015.
7- فكرت إبراهيم أحمد عوض، الفكر التربوي عند الإمام ابن الجوزي، قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في أصول التربية، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، أيار 2005.
8- عمر رضا كحّالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، المجلد 3، 1414هـ-1993م.

- 9- ماجد عرسان الكيلاني، تطوّر مفهوم النظريات التربوية الإسلامية، دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، دار ابن كثير دمشق-بيروت، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، 1405هـ-1985م.
- 10- إيمان محمد مبروك، الإنسان والتربية من وجهة نظر ابن القيم (تطبيقات تربوية)، مجلة جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، العدد 13، نوفمبر 2015.
- 11- صهيب بن عيسى المرزوقي، الفكر التربوي عند ابن القيم، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كلية الدعوة وأصول الدين، قسم التربية، المملكة العربية السعودية، العام الجامعي 1432هـ/1433هـ.
- 12- فتح المعين، التربية الإيمانية [دراسة تحليلية عن مواد التربية الإيمانية عند الإمام ابن قيم الجوزية]، الجامعة المحمدية مالانج، كلية الدراسات الإسلامية، قسم التربية، إندونيسيا 2013.
- 13- أحلام عبد اللطيف الملا، لطيفة صالح السميري، منهج التفكير لدى ابن قيم الجوزية-رحمه الله- وتطبيقاته التربوية، مجلة: رسالة الخليج العربي، العدد 128، السنة الرابعة والثلاثون، مكتب التربية العربي، الرياض المملكة العربية السعودية، 1434هـ-2013م.
- 14- منصور بن محمد المقرن، المجموع القيم من كلام ابن القيم في الدعوة والتربية وأعمال القلوب، المجلد الأول، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الرياض، 1426هـ/2005م.
- 15- أيمن عايد محمد ممدوح، دور التربية الخلقية في بناء المجتمع والحضارة الإنسانية المعاصرة، دراسة تحليلية، مجلة جامعة المدينة العالمية (مجمع)، العدد الثالث عشر، ماليزيا يوليو، 2015.
- 16- عبد الرحمان النحلاوي، ابن قيم الجوزية، دراسة موضوعية تحليلية تربوية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م.
- 17- مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، موسوعة الأخلاق الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، د، ت.